



الحث على التوبة

فيلالم

لابن رجب الحنبلي



نصم خاص للمتبصر عين وفا على الخير على جميع الإصدارات

الرياض - الميز - شارع الأحساء - غرب حديقة الحيوان
هاتف : ٤٧٦٩٩٣٢ - ٤٧٣٠٧٨٨

الحث على التوبة قبل الموت

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين :

أخي القارئ : هذه الرسالة الصغيرة التي بين يديك قد اخترناها من كتاب «لطائف المعارف لما لمواسم العام من الوظائف» للإمام الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله وقد اختصرناها وأسميناها «الحث على التوبة قبل الموت وختم العمر بها»

وهي رسالة مفيدة نافعة استشهد فيها المؤلف رحمه الله بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية كثيراً فيها النقول من أقوال السلف مسجلاً العبر والعظات من قصصهم . وقد ضمنها كثيراً من الأبيات الشعرية المؤثرة في النفس حاثاً فيها الناس بالتعجيل بالتوبة قبل الموت خاصة في زمن الشباب . هذا وقد رأت دار ابن خزيمة أن تعني بهذه الرسالة وتنشرها في رسالة مستقلة لعظم فائدتها ونفعها ونشرها بين المسلمين .

نسأل الله العظيم أن ينفع بهذه الرسالة كل من قرأها وساعد في نشرها وأن يهدينا ويهديه إلى صراطه المستقيم .

المعصية جهل :

عن ابن عمر عن النبي ﷺ ، قال : « إن الله عز وجل يقبل توبة العبد ما لم يُغرر » دل هذا الحديث على قبول توبة الله عز وجل لعبده ما دامت روحه في جسده لم تبلغ الحلقوم والتراقي . وقد دل القرآن على مثل ذلك أيضاً ، قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ ﴾ . وعمل السُّوء إذا افرد دخل فيه جميع

السيئات، صغيرها وكبيرها . والمراد بالجهالة الإقدام على عمل السوء ، وإن علم صاحبه أنه سوء ، فإن كل من عصى الله فهو جاهل ، وكل من أطاعه فهو عالم ، وبيانه من جهين :

أحدهما: أن من كان عالماً بالله تعالى وعظمته وكبريائه وجلاله فإنه يهابه ويخشاه ، فلا يقع منه مع استحضار ذلك عصيانه ، كما قال بعضهم : لو تفكر الناس في عظمة الله تعالى ما عصوه .

والثاني : أن من أثر المعصية على الطاعة فإنما حمله على ذلك جهله وظنّه أنها تنفعه عاجلاً باستعجال لذتها ، وإن كان عنده إيمان فهو يرجو التخلص من سوء عاقبتها بالتوبة في آخر عمره ، وهذا جهل محض ، فإنه يتعجل الإثم والخزي ، ويفوته عز التقوى وثوابها ولذة الطاعة ، وقد يتمكن من التوبة بعد ذلك ، وقد يعاجله الموت بغتة ، فهو كجائع أكل طعاماً مسموماً لدفع جوعه الحاضر ، ورجا أن يتخلص من ضرره بشرب الدرياق بعده . وهذا لا يفعله إلا جاهل .

التوبة في الصحة أفضل من التوبة في حالة المرض :

روى عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ [النساء، ١٧] ، قال : قبل المرض والموت ، وهذا إشارة إلى أن أفضل أوقات التوبة ، وهو أن يبادر الإنسان بالتوبة في صحته قبل نزول المرض به حتى يتمكن حينئذ من العمل الصالح ، ولذلك قرن الله تعالى التوبة بالعمل الصالح في مواضع كثيرة من القرآن .

وأيضاً فالتوبة في الصحة ورجاء الحياة تشبه الصدقة بالمال في الصحة ورجاء البقاء ، والتوبة في المرض عند حضور أمارات الموت تشبه الصدقة بالمال عند الموت . فإين توبة هذا من توبة من يتوب من قريب وهو صحيح قوي قادر على عمل المعاصي ، فيتركها خوفاً من الله عز وجل ، ورجاء ، لثوابه ،

وإثارةً لطاعته على معصيته ؟

فالتائب في صحته بمنزلة من هو راكب على متن جواده وبيده سيف مشهور ، فهو يقدر على الكرّ والفِرّ والقتال ، وعلى الهرب من الملك وعصيانه ، فإذا جاء على هذه الحال إلى بين يدي الملك ذليلاً له ، طالباً لأمانه ، صار بذلك من خواص الملك وأحبابه ؛ لأنه جاء طائعاً مختاراً له ، راغباً في قربه وخدمته .

وأما من هو في أسر الملك ، وفي رجله قيدٌ ، وفي رقبتَه غلٌ ، فإنه إذا طلب الأمان من الملك فإنما طلبه خوفاً على نفسه من الهلاك ، وقد لا يكون محباً للملك ولا مؤثراً لرضاه ، فهذا مثل من لا يتوب إلا في مرضه عند موته ، لكن ملك الملوك ، أكرم الأكرمين ، وأرحم الراحمين ، وكل خلقه أسير في قبضته ، لا يعجزه منهم أحد ، لا يعجزه هارب ، ولا يفوته ذاهب ، كما قيل : لا أقدر ممن طلبته في يده ، ولا أعجز ممن هو في يد طالبه ، ومع هذا فكل من طلب الأمان من عذابه من عباده أمانه على أي حال كان ، إذا علم منه الصدق في طلبه .

وقوله عز وجل ﴿ **وليس التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً** ﴾ [النساء : ١٨] فسوى بين من تاب عند الموت ومن مات من غير توبة . والمراد بالتوبة عند الموت التوبة عند انكشاف الغطاء ، ومعاناة المحتضر أمور الآخرة ، ومشاهدة الملائكة ؛ فإن الإيمان والتوبة وسائر الأعمال إنما تنفع بالغيب ، فإذا كُشف الغطاء وصار الغيب شهادة ، لم ينفع الإيمان ولا التوبة في تلك الحال .

وقد قيل : إنه إنما مُنع من التوبة حينئذٍ ؛ لأنه إذا انقطعت معرفته وذهل عقله ، لم يتصور منه ندم ولا عزم ؛ فإن الندم والعزم إنما يصح مع حضور العقل . وقوله ﴿ **فإن الندم والعزم إنما يصح مع حضور العقل** ﴾ يعني إذا لم تبلغ روحه عند خروجها منه إلى حلقه ، فشبه

ترردها في حلق المحتضر بما يتغرغر به الإنسان من الماء وغيره ، ويردده في حلقه . وإلى ذلك الإشارة في القرآن بقوله عز وجل : ﴿ **فلولا إذا بلغت الحلقوم *** وأنتم حينئذ تنظرون * ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون ﴾ [الواقعة : ٨٣ - ٨٥] ، وبقوله عز وجل ﴿ **كلأ إذا بلغت التراقي *** [القيامة : ٢٦] .

عش ما بدا لك سالماً
في ظل شاهقة القصور
فإذا النفوس تقعقت
في ضيق حشجة الصدور
فهناك تعلم موقناً
ما كنت إلا في غرور

الاستعداد للموت :

واعلم أن الإنسان ما دام يؤمل الحياة فإنه لا يقطع أمله من الدنيا ، وقد لا تسمح نفسه بالإقلاع عن لذاتها وشهواتها من المعاصي وغيرها ، ويرجيه الشيطان التوبة في آخر عمره ، فإذا تيقن الموت ، وأيس من الحياة ، أفاق من سكرته بشهوات الدنيا ، فندم حينئذ على تفريطه ندامة يكاد يقتل نفسه ، وطلب الرجعة إلى الدنيا ليتوب ويعمل صالحاً ، فلا يجاب إلى شيء من ذلك ، يجتمع عليه سكرة الموت مع حسرة الفوت . وقد حذر الله تعالى عباده من ذلك في كتابه : قال تعالى ﴿ **وأنبيوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن ياتيكم العذاب ثم لا تنصرون *** واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن ياتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون * أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين ﴾ [الزمر : ٥٤ - ٥٦] . سمع بعض المحتضرين عند احتضاره يلطم على وجهه ، ويقول : ﴿ **يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله *** وقال : آخر عند احتضاره : سخرت بي الدنيا حتى ذهبت أيامي . وقال آخر عند موته : لا تغرنكم الحياة الدنيا كما غرتني .

وقال الله تعالى : ﴿ حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب
أرجعون لعلّي أعمل صالحاً فيما تركت كلا إنها كلمة
هو قائلها ﴾ [المؤمنون : ٩٩] وقال الله تعالى :
﴿ وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت
فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن
من الصالحين ﴾ ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها
والله خبير بما تعلمون ﴾ [المنافقون : ١٠]

قال الفضيل : يقول الله عز وجل : ابن آدم ! إذا كنت
تتقلب في نعمتي وأنت تتقلب في معصيتني ، فاحذرنني
لا أصرعك بين معاصي .

وفي الحديث : « ما من أحد يموت إلا ندم » . قالوا : وما
ندامته ؟ قال : « إن كان محسناً ندم أن لا يكون ازداد ،
وإن كان مسيئاً ندم أن لا يكون استعقب » . إذا ندم
المحسن عند الموت فكيف يكون حال المسيء . غاية
أمنية الموتى في قبورهم حياة ساعة يستدركون فيها
ما فاتهم من توبة وعمل صالح ، وأهل الدنيا يفرطون
في حياتهم فتذهب أعمارهم في الغفلة ضياعاً ، ومنهم
من يقطعها بالمعاصي .

أقسام الناس من التوبة

الناس من التوبة على أقسام :
فمنهم : من لا يوفق لتوبة نصوح ، بل ييسر له عمل
السيئات من أول عمره إلى آخره حتى يموت مُصِراً
عليها ، وهذه حالة الأشقياء . وأقبح من ذلك من يُسرّ
له في أول عمره عمل الطاعات ، ثم خُتم له بعمل
سيئ حتى مات عليه ، كما في الحديث الصحيح :
« إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة ، حتى ما يكون
بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل
بعمل أهل النار فيدخلها » . [أخرجه البخاري]

ما أصعب الانتقال من البصر إلى العمى وأصعب منه
الضلالة بعد الهدى ، والمعصية بعد التقى . كم من

وجوه خاشعة وَقَعَ على قصص أعمالها : **﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ . تَصْلِي نَارًا حَامِيَةً﴾** [الغاشية ، ٤، ٣] . كم من شارف مركبه ساحل النجاة ، فلما هم أن يَرْتَقِي لعبَ به مَوْجُ الهَوَى فغرق . الخلقُ كلهم تحت هذا الخطر . قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يُقَلِّبُهَا كيف يشاء .

قال بعضهم : ما العجبُ ممن هلك كيف هلك ، إنما العجبُ ممن نجا كيف نجا .

وقسم : يفني عمره في الغفلة والبطالة ، ثم يوفق لعملٍ صالح فيموت عليه ، وهذه حالة من عمل بعمل أهل النار حتّى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها .

الأعمال بالخواتيم ، وفي الحديث : « إذا أراد الله بعبدٍ خيراً عَسَلَهُ ، قالوا : وما عَسَلَهُ ؟ قال : يوفِّقه لعملٍ صالحٍ ثم يقبضه عليه » [صحيح . انظر صحيح الجامع الصغير] .

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ ، قال : « إن الشيطان قال : وعِزَّتْكَ ياربِّ ، لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم . فقال الربُّ عزَّ وجلَّ : وعِزَّتِي وجلالي ، لا أزالُ أغفرُ لهم ما استغفروني » [رواه أحمد] .

وروي أن رجلاً من أشراف أهل البصرة كان مُنحدرًا إليها في سفينة ومعه جارية له ، فشرب يوماً ، وغنَّته جاريته بعودٍ لها ، وكان معهم في السفينة فقيرٌ صالحٌ ، فقال له : يا فتى ! تحسنُ مثل هذا ؟ قال : أحسنُ ما هو أحسنُ منه . وقرأ **﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلَا تَضْلُمُونَ فَتِيلًا . أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ ﴾** [النساء : ٧٧ و ٧٨] ، فرمى الرجل ما بيده من الشراب في الماء ، وقال : أشهد أن هذا أحسن مما سمعت ، فهل غير هذا ؟ قال : نعم ، فتلا عليه : **﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ**

ومن شاء فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴿ [الكهف ، ٢٩] ... الآية . فوقعت من قلبه موقعاً ، ورمى بالشراب في الماء ، وكسر العود ، ثم قال : يا فتى ! هل هناك فرج ؟ قال : نعم ، ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر ، ٥٣] .. الآية . فصاح صيحة عظيمة ، فنظروا إليه فإذا هو قد مات رحمه الله .

وبقي ها هنا قسم آخر ، وهو أشرف الأقسام وأرفعها ، وهو من يفني عمره في الطاعة ، ثم يُنَبِّه على قرب الآجال ، ليجد في التزود ويتهيأ للرحيل بعمل يصلح للقاء ، ويكون خاتمة للعمل . قال ابن عباس : لما نزلت على النبي ﷺ ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ [النصر : ١] نعت لرسول الله ﷺ نفسه ، فأخذ في أشد ما كان اجتهداً في أمر الآخرة .

وكان من عادته أن يعتكف في كل عام في رمضان عشراً ، ويعرض القرآن على جبريل مرة ، فاعتكف في ذلك العام عشرين يوماً ، وعرض القرآن مرتين ، وكان يقول : ما أرى ذلك إلا لاقتراب أجلي . ثم حج حجة الوداع ، وقال للناس : خذوا عني مناسككم ، فلعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا . وطفق يودّع الناس ، فقالوا : هذه حجة الوداع . ثم رجع إلى المدينة فخطب قبل وصوله ، وقال : أيها الناس ! إنما أنا بشر ، يوشك أن يأتيني رسول ربّي فأجيب . ثم أمر بالتمسك بكتاب الله ، ثم توفي بعد وصوله إلى المدينة بيسير ﷺ .

إذا كان سيّد المحسنين يؤمر أن يختم عمره بالزيادة في الإحسان ، فكيف يكون حال المسيء ؟
* خُذْ فِي جِدٍّ فَقَدْ تَوَلَّى الْعُمُرُ

كم ذا التفريطُ قد تدانئى الأمرُ
أقبل فَعَسَى يُقْبَلُ منك العُدْرُ
كم تبني كم تنقُصُ كم ذا العُدْرُ

* تَاهَبُ لِلَّذِي لَا بُدَّ مِنْهُ

من الموتِ الْمُؤَكَّلِ بِالْعِبَادِ

أَتَرْضَى أَنْ تَكُونَ رَفِيقَ قَوْمٍ

لَهُمْ زَادٌ وَأَنْتَ بَغِيرُ زَادٍ

* تُبُّ مِنْ خَطَايَاكَ وَابْنِ خَشْيَةٍ

مَا أَثْبَتَ مِنْهَا عَلَيْكَ فِي الْكُتُبِ

أَيُّهُ حَالٌ تَكُونُ حَالِ فَتَى

صَارَ إِلَى رَبِّهِ وَلَمْ يَتُبْ

وَتَاخِرُ التَّوْبَةِ فِي حَالِ الشَّبَابِ قَبِيحٌ ، فَفِي حَالِ

الْمَشْيِبِ أَقْبَحُ وَأَقْبَحُ .

الحث على تجديد التوبة والإكثار من

الاستغفار عند المرض والموت :

فإن نزل المرض بالعبد فتأخيره للتوبة حينئذٍ أقبح

من كل قبيح ؛ فإن المرض نذير الموت .

وينبغي لمن عاد مريضاً أن يذكره التوبة والاستغفار ،

فلا أحسن من ختام العمل بالتوبة والاستغفار ؛ فإن

كان العمل سيئاً كان كفارة له ، وإن كان حسناً كان

كالطابع عليه .

وفي حديث « سيد الاستغفار » : من قاله إذا أصبح

وإذا أمسى ، ثم مات من يومه أو ليلته ، كان من أهل

الجنة . وليكثر في مرضه من ذكر الله عز وجل ،

خصوصاً كلمة التوحيد ؛ فإنه من كانت آخر كلامه

دخل الجنة .

وكان السلف يرون أن من مات عقيب عملٍ صالح

كصيام رمضان ، أو عقيب حجٍّ أو عمرة أنه يرجى له أن

يدخل الجنة . وكانوا مع اجتهدهم في الصحة في الأعمال

الصالحة يجددون التوبة والاستغفار عند الموت ،

ويختتمون أعمالهم بالاستغفار وكلمة التوحيد .

يَا غَافِلَ الْقَلْبِ عَنْ ذِكْرِ الْمَنِيَّاتِ

عَمَّا قَلِيلٍ سَتَنُوِي بَيْنَ أَمْوَاتٍ

فَاذْكُرْ مَحَلَّكَ مِنْ قَبْلِ الْخُلُولِ بِهِ
وَتُبْ إِلَى اللَّهِ مِنْ لَهْوٍ وَلِذَاتِ
إِنَّ الْجِمَامَ لَـهُ وَقْتُ إِلَى أَجَلٍ
فَاذْكُرْ مَصَائِبَ أَيَّامٍ وَسَاعَاتِ
لَا تَطْمِئِنُّ إِلَى الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا

قَدْ حَانَ لِلْمَوْتِ يَا ذَا اللَّبِّ أَنْ يَأْتِيَ
التَّوْبَةُ التَّوْبَةُ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَيْكَ مِنَ الْمَوْتِ النَّوْبَةُ ،
فِيحْصِلُ الْمَفْرُطُ عَلَى النَّدَمِ وَالْخَيْبَةِ .

الْإِنَابَةُ الْإِنَابَةُ قَبْلَ غُلُقِ الْإِجَابَةِ . الْإِفَاقَةُ الْإِفَاقَةُ : فَقَدْ
قَرُبَ وَقْتُ الْفَاقَةِ . مَا أَحْسَنَ قَلْقَ التَّوَابِ ! مَا أَحْلَى قَدُومَ
الْغِيَابِ ! مَا أَجْمَلَ وَقُوفَهُمْ بِالْبَابِ !

مَنْ نَزَلَ بِهِ الشَّيْبُ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْحَامِلِ الَّتِي تَمُتُّ شُهُورَ
حَمْلِهَا ، فَمَا تَنْتَظِرُ إِلَّا الْوِلَادَةَ ، كَذَلِكَ صَاحِبُ الشَّيْبِ
لَا يَنْتَظِرُ غَيْرَ الْمَوْتِ : فَقْبِيحٌ مِنْهُ الْإِصْرَارُ عَلَى الذَّنْبِ .

أَيُّ شَيْءٍ تُرِيدُ مِنِّْي الذَّنُوبُ
شَغَفْتُ بِي فَلَيْسَ عَنِّي تَغِيبُ
مَا يَضُرُّ الذَّنُوبَ لَوْ أَعْتَقْتَنِي

رَحْمَةً بِي فَقَدْ عَلَانِي الْمَشِيبُ
أَيُّهَا الْعَاصِي ، مَا يَقْطَعُ مِنْ صَلَاحِكَ الطَّمَعُ ، مَا نَصَبْنَا
الْيَوْمَ شَرَكَ الْمَوَاعِظِ إِلَّا لَتَقَعَ . إِذَا خَرَجْتَ مِنَ الْمَجْلِسِ
وَأَنْتَ عَازِمٌ عَلَى التَّوْبَةِ ، قَالَتْ لَكَ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ :
مَرْحَباً وَأَهْلاً ، فَإِنْ قَالَ لَكَ رِفْقَاؤُكَ فِي الْمَعْصِيَةِ : هَلُمَّ
إِلَيْنَا ، فَقُلْ لَهُمْ : كَلَّا خَمَرُ الْهَوَى الَّذِي عَهْدْتُمُوهُ قَدْ
اسْتَحَالَ خَلًّا .

يَا مَنْ سَوَّدَ كِتَابَهُ بِالسَّيِّئَاتِ قَدْ أَنْ لَكَ بِالتَّوْبَةِ أَنْ
تَمْحُو . يَا سَكْرَانَ الْقَلْبِ بِالشَّهَوَاتِ أَمَا أَنْ لَكَ بِالتَّوْبَةِ
أَنْ تَمْحُو ؟ يَا سَكْرَانَ الْقَلْبِ بِالشَّهَوَاتِ أَمَا أَنْ لِفُؤَادِكَ
أَنْ يَصْحُو ؟

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ